رحلة زمنية إلى فاس القديمة:

مدينة مسكونة بالعشق والجمال

خالد القزحي

و أنا أكتب عن مدينة فاس (البالي - القديمة) الواقعة في ولاية فاس بالمملكة المغربية، لا أنشد مجرد ذكر أني قمت بزيارتها كمكان أو أكتب سيرة ذاتية لزيارتي لها.، إنما أحاول أن أكتب بشكل يقارب الاثنوغرافيا عن ذلك النص الأدبي الزمكاني الأطراف والحاوي لروعة الزمن وأثره على جدران مبانيها وأرضياتها ومعالمها المثيرة ، تلك اللوحة الفريدة التي أثارت شاعريتي لأتغنى بها وعنها وأثارت فضولي لأقوم بزيارتها باستمرار تارة مع أصدقائي وتارة مع نفسي . حتى في أصعب اللحظات النفسية الناتجة عن الضغط الدراسي والمهجر والظروف المالية المحبطة للطالب اليمني في بلد الدراسة كانت هي ملاذي الوحيد الذي يجعلني أحس بالروحانية العارمة والطمأنينة التي تجعلني أحس بوجود بيتي فيها، بمجرد تفكيري بزيارة المدينة القديمة لفاس كانت تأتيني مشاعر العاشق الذي تشتد فرحته ورهبته وهو على موعد مع عشيقته التي لا تلقي له بالا رغم فرحتها الخفية للقاء بدلال العارفة لرغبة العاشق في النظر إليها. وبمجرد وصولي إلى أحد أقدم بواباتها الأربع عشرة القديمة والعملاقة وهي البوابة الدائمة الاستقبال لي مع بداية كل زيارة (باب بوجلود) كما كنت أسمع أصدقائي ينطقون اسمها ولم أتأكد من حروف كتابتها حتى هذه اللحظة كي لا ينقص أو يتغير من ذكراها شيء في نفسي، كنت أقف أمام هذا البوابة العملاقة والذي يُرمز بلون فسيفسائها الأزرق من الناحية الخارجية لكثرة منابع المياه داخل المدينة واللون الأخضر من الداخل للخضرة والدين. ما إن أصل إليها حتى أُحسُّ أني على أهبة الدخول عبر بوابة زمنية تنقلني من خمول المدنية وتراكم غبار وأدخنة المدينة الإسفلتية وعرباتها الملوثة إلى العصور الإسلامية الغناء ، بداية من منتصف القرن الثامن الميلادي وما فوق لتتوقف كل تلك المظاهر المزعجة من ضوضاء وحداثة لا تأبه للإنسان كإنسان ولا للطبيعة كمكان له كرامته وهيبته ،، مع الدخول من خلال البوابة تتبدل كل تلك المظاهر وتحل محلها أنغام صهيل الخيول ودقدقات مشي البغال والعربات التي تجرها ورائحة النعناع وألحان النسائم التي تتراقص بين المرات والأزقة جالبة نشوة الوصل مع الحبيبة فاس في قعر دارها .. ما عاد من اثر لملامح الأسمنت الذي تثير أعصابي قساوته ليغطي الجدران بدلا منه إما فسيفساء تم تنقيتها لغرض إمتاع العين ببهاء تركيبها واختيار ألوانها أو طين يرسل للزائر عبير الرحبة وكرم الضيافة. بعض الطين كان يبدو جديدا ويغطي أعمدة أو جدراناً اسمنتيه ولكن هذا زاد من محبتي لأهل المنطقة الذين يحاولون أن يجددوا ما يميز فاس عن كثير من المدن الجميلة الأخرى .. ربما ليس من العدل أن أذكر فاس بدون ذكر أهلها الطيبين ولي معهم محبة خاصة وود سيدوم ما دامت روحي معي ولكن فليسمحوا لي أن أتكلم عنها فقط ،، فمع لقائها أو تذكرها أصبح منتشيا لحد نسيان نفسي فربما عتبت على كثير منهم هجرها وتركها لأيدٍ كل أملها أن تستغل جمالها وبراءتها لمردود مادي مهما حاولوا الحفاظ على نظارتها فهم ليسوا أهلها الفعليين وخاصة أولئك الآتين من الشمال والغرب .. مجرد تذكرهم يثير غيرتي . لهذا لن أتعرض لجانبها الديموغرافي .

كانت فاس القديمة أو فاس البالي كما يحب أهلها أن يسمونها تعتبر خلوتي رغم عدم خلوها من الازدحام باستمرار. مع كل لقاء بيننا ، كنت أحس وكأنني كنت ابحث عن شيء ضائع مني بين تلك ممراتها وأفنية منازلها وأصوات حوافر الخيول والبغال الناقلة للبضائع وأوجه الناس المبتسمة دوما مهما كان سبب الابتسامة والأسواق المتعددة الأغراض! كل مرة ذهبت وحيدا كنت افقد طريق عودتي، وكانت زياراتي المتكررة لا تعلمني أن أتذكر مداخلها ومخارجها مهما كثرت الزيارات لسبب بسيط: كلما دخلتها أصبحت أعيش في حالة هيام تام يسكرني، لا أضيع ولو لحظة واحدة للتركيز على مكان تواجدي كي لا أضيع ذلك الإحساس المنتشي الناتج عن تلك الرائحة الزمنية التي كانت تأتيني من جامع القرويين (أول جامعة في العالم859م) أو من ضريح (مولاي إدريس) وبقية المدارس و الأضرحة والزوايا لكثير من الولاة والمشايخ الدينيين والصوفيين التي تتوزع هنا وهناك. أدهشتني أيضاً تلك الممرات الضيقة التي تتخلل آلاف البيوت والتي قد تكون بعضها أشد ضيقا في المساحة من ممرات صنعاء القديمة وأكثر رحبة من اتساع شارع محمد الخامس وسط مدينة فاس الجديدة (أكبر شارع رأيته). كل مرة كنت أنصح فيها نفسي بحفظ طريق الرجوع، ولكن كانت الأماكن تسكرني تباعا وأنا أتجول غير مدركٍ أين مكاني بين تلك الأزقة الملتوية والتي من المؤكد أنه كان لها مشاركتها الفاعلة ضد أي مستعمر لتقف بوفائها مع أهلها في موقف المقاوم العصّي على أي دخيل يحاول المساس بكرامتها.

كنت أتأمل لكل ما حولي من شرفات ومشربيات لأكتشف مقدار المحافظة ذات الطابع الإسلامي المتميز وهي تعرض عن طريق أسلوب بنائها العازل بين عالم الذكور وعالم الإناث حيث تُشرِفُ مشربيات صغيرة الحجم مليئة بالثقوب من أعلى وأدنى وهي تطل على الشارع بدلا من النوافذ لتحافظ على خصوصية أماكن تواجد النساء في البيوت إلا من منافذ مختصرة لدخول الهواء وضوء الشمس. وكانت تنشيني أكثر رائحة الأبواب والحواجز وأغطية الكثير من الممرات المنحوتة على قوالب خشبية كبيرة الحجم والمتقنة في الصنع والنقش والزخرفة . أصبحت مفتتناً حتى برائحة الجلود في المدابغ رغم عدم تقبلي لتلك الرائحة خارج هذه المدينة الجميلة وكانت تراقصني أصوات ضربات النحاسين وهم يصنعون تلك الأواني النحاسية. كنت أتلمس بيدي تلك الأبواب العتيقة فتنقلني تلك اللمسات إلى ماضٍ حكيم يروي لي طريقة صنعها ونقلها من الغابات وحتى تصل إلى هذه التحفة المعمارية التاريخية لتتباهى بجمالها وموقعها بعد أن أصبحت أجزاءً من إرثها الثقافي وحضارتها المتميزة. صدقا أنا لم أر فاس مجرد مدينة للسكن، ولا ألاف كثيرة من المنازل أو مجرد أسواق للتبضع أو تلك المقاهي والسكنات العتيقة مبانيها الحديثة إمكانياتها وهي تقدم الأتاي (الشاي) الأخضر مع النعناع على نغمات الموشحات الأندلسية فقط .. بل رأيتها كعالم من الجمال والروعة يحوي حياة يكون فيها الزمن صفراً والقديم مولوداً جديداً، التاريخ خارجٌ عن الحساب الفلكي والجغرافيا وصلت إلى حد الدهشة وحافظت على رونقها وأوقفت عقارب ساعتها . وجدتني مصابا بالذهول .. ذهول الإجلال من ذلك الأريج الذي ما زال ينبعث من صدى جدرانها إلى ثكنات مخيلتي حتى أحسست أني أصبحت جزء منها كتوحد المحب بالمحبوب. أدركت في تلك اللحظة فقط وأنا أستعد لمغادرة المغرب أنني لم أعد أنا بعد ما أصبحت فاس جزءً مني ، وبعد أن أصبحت أنا أحد عناصرها التي لا يجب أنا تتخلى عنها تماما كتلك الأخشاب التي جاءت غريبة وانتهت لتكون أحد مكونات المدينة وكتلك المآذن التي وصلت مع الإسلام وأصبحت من أهم الملامح التي تميز المدينة الإسلامية .. فاس القديمة ليست قديمة فعلا لأنها أحدث من كل مظاهر عصر ما بعد الحداثة المتهاوي والخالي من هوية تفتخر بها أي مدينة حديثة حيث يمكن تغيير ملامحها بأكياس من الأسمنت وقليل من العمل .. ولكن بالنسبة لفاس الوضع يختلف .. لا يمكن أن نصنع (فاس) أخرى بهذه الطريقة!

ورد الربيع

د. عبدالعزيز المقالح

■ مع بداية الربيع تتفتح الأزهار ويتفتح ورد الشعر، ويخرج الشعراء الرائعون والشاعرات الرائعات من صمتهم وعلى شفاههم عطر الكلمات وإشراقات الأمل.

ومن حسن حظ الشعر أنه لا يذبل ولا تتساقط أوراقه في جميع الفصول، كما أن أطيافه البديعة لا تتوقف عن الرحيل صوب ما لم يكتب ولم تتلفظه اللغة من معاني الحب والحنين وجمال الحياة.

والشعراء الرائعون والشاعرات الرائعات لا يتوقفون كثيراً أو قليلاً عند الأشواك التي تحيط بالوردة وإنما يطيلون الوقوف عند الوردة ذاتها ويسترسلون في تأمل أوراقها ويستمتعون برائحتها وألوانها البديعة.

وحياتنا اليوم كما كانت بالأمس، وكما لا أرجو أن تكون في الغد تشبه حياة الوردة مع الشوك، بين ما يضيء الروح وما يربكها. وعلينا أن نسعى دائماً وجهد المستطاع إلى إيجاد المشهد الذي تكثر فيه الورود وتقل الأشواك، المشهد الذي ترتاح إليه النفوس وتطمئن العقول. ولا وسيلة لنا لتشكيل هذا المشهد المنتظر سوى الشعر وقد أكد لنا دائماً أن في مقدوره أن يصنع البهجة والفرح وأن يحرك الأخشاب البشرية ويمنحها القدر المطلوب من الصفاء والانتشاء.

وفي زمن الأصوات النشاز في السياسة، زمن الاعوجاج، والانحراف عن منطق الحكمة والثورة والعدل، على الشعر أن يتصدّر المشهد وأن يكون صوت المستقبل الجميل وحادي القافلة الجديدة وأن يظل متمسكاً برسالته النقية في ملامسة القلوب والتبشير بالمطر، والإنصات إلى ضحكات الأطفال أولئك الشعراء الحقيقيين الذين يكتبون بضحكاتهم الصافية وصخبهم الجميل أبدع وأجمل ما في هذا الوجود من شعر لا يكتب ولا يجمع في دواوين أو كراسات.

* نص الكلمة التي ألقاها الدكتور عبدالعزيز المقالح بمناسبة الاحتفال بيوم الشعر العالمي

مراحل

صفية يوسف

1- وفق أشياء الزمن تتمخض إرادتي الخلاقة فأقذف بأوجاعي بعيدا حتى يجرفها السيل العرم!!

2- صفعتها ! بصقت في وجهها مرتين! فقد سلبتني أحلامي مرتين انتزعت من مخيلتي حصاد سنيني، واغتالت بسم غادر أروع مراحلي!!

3- انشقت عن ذاكرتي مرحلة بؤس قاتل لا أخوض فيها أبدا، فور ولادتها العسرة كي لا أصاب بالعار وأدتها!!

4- دون اندفاعي، أتدثر بالوقار، أتأبط خيط أمل ضعيف، أتأرجح داخل سمفونية مقلوبة أعتلي هرم الخرافة، مختالة بنفسي أنصبها زعيمة سياسية!!

5- في أحضان الخيبجة اتجاوز حدود الخيالات، أخصب أفكاري في حقل مجدب، وفي الأفق أتجاوز الجحيم، أنهمر إشعاعات تحطمني!!

6- عندما أعشقك أزيد من تذويب قطع السكر في دمي، فأزداد حلاوة بطعم النشوة!

7- فتشت مستاءة جميع الجيوب، ولكن! لم أصل إلى غايتي جميعها بدت فارغة من كل شيء! وقد تحوي أي شيء! بحركة عفوية وبلا مبالاة مني أستمر بمزاولة عادتي المشؤومة! ربما أفاجأ- ذات يوم- بشيء يمحو الأثر السابق! وربما أنقاد- ذات يوم- نحو حتمية جدلية! فالأفراد تتعدد والجيوب ذاتها!!

8- تزدهر أناي، أزهو بذاتي، أنأى بها في ركن قصي عن الآخر!!

9- زخم الأفواه ينقض علي، يمتص خلاصتي، يوقظ مائي الآسن، أفيض حقولا خصبة لا تفتأ تقفر فأغادرها!!

10- يستلب الآخر أناي حينا من الدهر! فأقوم بغزل خيوط الأمل داخل رحمي!!

ديوان «الفصول الستّة»

إبراهيم محمد طلحة

{ من «(فصل) البراعم» إلى «الغيمة المحترقة» يشعل الشاعر محمد صالح المحفلي جذوة احتفالاته في «مراعي الريح»، والفصول المتخللة أوراق عمله، متمثلة في فصل الرياح، وفصل الغبار، وفصل السراب، وفصل الذبول، وفصل الضباب، أكدت المعنى الكامن في أحاديته الزمنية، محاكماً الأوقات الممتدة بين قِدم الدهر والأزل وحداثة الأوجاع والآلام.

الفصول الستّة في مراعي الريح، للشاعر المحفلي عبارة عن موجودات متغيرة في غمرة الثوابت والمسلمات القسرية، إنه في فصوله المختلفة يقاضي الزمن القصير لأحلامنا ويزيده ثقلاً إلى أثقاله وفصلين إلى فصوله المعروفة :

«ها أنا أتركك
وحولكِ عبادك المغفَّلون
يمارسون العشق كل لحظةٍ
ويشربون
الليل والسنين».

أشكال افتراضية لفصول إضافية، أشكال جديدة لأزمنة مديدة، يشبه بعضها بعضاً رغم أنواعها العديدة.

محمد صالح المحفلي يحسب الدوران الفلكي ومواقع النجوم بطريقة مغايرة، طريقة وجدانية لا رياضية، على الشاعر - وفق وجهة نظره - أن يقرأ التراكيب الفيزيائية بمشاعر إنسانية.

إنها حياة الأدباء الثرية بالكلمات مقابل حياة الناس العاديين الذين يستبقون أوقاتهم الرتيبة بالقبول.

للفصول الستة حدود قصوى وأيام أخرى، وللشعراء بحقٍّ لفتاتٌ لا يمكن أن تُنسى.

وجوه هلامية

ريفية

كثر العابرون الى قلبها, هاتفها غص بأرقامهم, ليلها الموحش صار كرنفالاً لملكتها المدهشة. تلك المدثرة بسذاجة ريفية؛ خرجت من قمقمها وغدت تفاحة يانعة.. دخلت دائرة الجاذبية ولم تسقط. تركتهم يتساقطون تحيت قدمها ومضت.

سوريالي

يداه مرتعشان وسيجارة في فمه, يفتح قنينة أفكاره, يسكبها بحرص وأناة على خشبة مسندة أمامه؛ يرسم أرنباً, ليس مجرد أرنبا.. سيرسم له ذيل حصان, ورأس ذئب, وقرني وعل, وصدر أسد, ووو.. سيجعله يبيض؟؟.

حلاقي

لا أذهب إليه كثيراً, يخنقني بخرقة بيضاء, ويرشني بوابل من السياسة. يفرك شعري موضحاً أهمية تأهل منتخب الشباب الى النهائيات؛ يقص بضع شعيرات مبدياً إعجابه بـ((أبو بكر سالم)) لاعناً (أليسا) وأخواتها. يشارف على النهاية فيبث شكواه (مشاريع فاشلة.. شوارع مهشمة.. مجاري طافحة. فساد.. غلاء.. أووووف) ما إن ينته حتى أكتشف خلو جيبي؛ فأتقمص ذات الأدوار.

خالد الحيمي

زميلة

تهبط عليّ برداً وسلاماً, تصافحني بحرارة, وتتلذذ بارتباكي, تطمئن على حالي, وتسألني عن زوجتي وخلافاتنا الدائمة.. قبل ذهابها لا تنسى أن تذكرني بأنها لم تزل عازبة.

هلاميون

رأيتهم يخلعون وجوههم ويضعونها في أحذيتهم ويتركونها على الأبواب. لم أكن أستطيع رؤيتهم يعودون.. غالباً ما ينسلون كالخرافة, يرتدون وجوههم ناسين أفواههم ملتصقة على جدار حذاء عفن!.

اصدارات ثقافية

تاريخ الفكر الصيني

> بيروت - صدر حديثاً عن المنظمة العربية للترجمة كتاب: "تاريخ الفكر الصيني" تأليف آن شنغ، ترجمة الدكتور محمد حمّود.

يقدم هذا الكتاب الثقافة الصينية في مداها الواسع، ويلاحق عبر تاريخ مكون من انقطاعات جذرية، وتحولات عميقة، وولادة أفكار على درجة من الأصالة كأفكار مونفوشيوس وبوذا والطاوية، قبل أن تباشر هذه الأفكار في العصر الحديث إقامة حوار مع الغرب.

وعلى الرغم من ذلك، فالملاحظ أن غالبية الغربيين ومعظم الشرقيين وخصوصاً العرب يجهلون هذا الموروث الثقافي الذي لم يقدم إليهم إلا بشكل مجتزأ أو متحيز.

تقدم لنا آن شنغ (Anne Cheng) في هذا الكتاب خلاصة متقنة، أعادت فيها رسم تطور الفكر الصيني منذ عهد سلالة شانغ في الألف الثاني قبل الميلاد، وصولاً إلى حركة 4 أيار/ مايو 1919 التي تشكل قطعاً مع الماضي، وتجديداً لفكرٍ لم يقل كلمته بعد.

حاز هذا الكتاب على جائزتين ستانيسلاس- جوليان وداغنان- بوفريه من الأكاديمية الفرنسية.

يقع الكتاب في 846 صفحة.

الإعلام وثقافة التفكيك

> صدر عن دار العربي للنشر والتوزيع في القاهرة كتاب (الإعلام وثقافة التفكيك) للباحث ماجد فاضل الزبون ، يسلط فيه الباحث على ما لعبه ويلعبه الإعلام من دور في تفكيك أواصر العلاقات الإجتماعية بين الأفراد والشعوب ، خصوصا بعد أن الغى الإتصال والإعلام بشكل عام والبث الفضائي التلفزيوني بشكل خاص الحواجز بين البلدان والمجتمعات حتى كاد أن يكون العالم أشبه بالقرية الكونية ، ليصف كثيرون التلفزيون بأنه الجهاز الذي جمع العالم بعد أن جمع العائلة حوله .

إلا أن الباحث يعترض على هذا الوصف والحكم كونه لم يكن دقيقا ، لأنه بني على حكم متسرع وتصور خاطئ ، فالتطورات التي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين في مجال التلفزيون خلقت نظاما مختلفا بالكامل عما كان سائدا في السابق ، إذ وفرت الإتصال بإتجاهين وأدت الى شيوع المحطات الفضائية المتخصصة ، والتي راحت هي الأخرى تتفكك الى تفاصيل وتخصصات أدق ، موجهة برامجها الى جماهير محددة ذات إهتمامات متباينة أو الى جماهير انقسمت فيما بينها على أسس سياسية ودينية وعرقية ، فبات التنافس على الفضائيات والبرامج واضحا حتى ضمن العائلة الواحدة التي لا يتعدى عدد أفرادها الاثنين ، فلم يعد الجمهور كمفهوم كما كنا نعرفه من قبل ، والتلفزيون تطور سريعا ولم تعد مواكبته ممكنة ، وهنا يتساءل الباحث الى أين سيصل بنا التلفزيون من الفرقة والتفكك .؟

توزع الكتاب على أربعة فصول وبواقع 232 صفحة من الحجم الكبير ، وصمم غلافه الفنان عبد الرحمن الصواف .

«الأدب ونصوص الحياة»

> صدر كتاب «الأدب ونصوص الحياة» للدكتور مجدي أحمد توفيق عن دار «سندباد للنشر والتوزيع» في القاهرة، متوزعاً على ثلاثة فصول «الرواية والتاريخ»، «السيرة الذاتية وحيوية التناص»، «الأدب العجائبي والتناص الإدراكي».

يدورُ الكِتابُ حسبما ذكر المؤلف حول قضية مركزية هي إقامة علاقة تفاعُلية بين النص الأدبي ونص الحياة، مشيراً إلى أن الحياة التي نعيشها سلسلة من النصوص، ليس لها نص لغوي ثابت مدوَّن، يبدأ مع كلمة محددة، وينتهي عند بلوغه كلمة محددة أخرى.

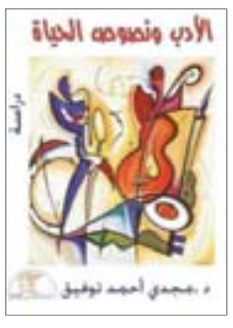

تابع: «الحياة نص تشكّله أعمالنا، وأقوالنا، وحركاتنا، وثيابنا، ومبانينا، وجملة ممارساتنا التي تطلق سلاسلَ من العلاماتِ المتفاعلة. التاريخ واحد من نصوص الحياة، ليس التاريخ ما يدّونه المؤرخ، بل التاريخ ما وقع حقاً، ولا سبيل إلى أن نقطع بأن تصوراً من التصوّرات هو عين ما وقع حقاً، والمؤرخ إنسان يجتهد لكي يرسم صورة يراها قريبة إلى حد مرض مما وقع حقاً، أما ما وقع حقاً فهو سلسلة من العلامات غير المتونية، يحبّرنا تأويلها، ويحيرنا، قبل تأويلها، تحديدها وتوثيقها، ولقد وضعتنا دراسة الرواية التاريخية أمام هذه الحقائق، وحددت خمسة مسارات بين النص الأدبي والتاريخ، تمثِّل ضوابط لآفاق التأويل المتولدة عنها».